

اشرف العقل العربي
مع الاسلام ونشأة الدولة
واتساع رقعة الفتوحات،
اشرافاً واسعاً على آفاق
فكرية جديدة كانت
مقفلة دونه اقفالاً تاماً او

ثقافة عصر ابن المقفع

بقلم سيف خوري

الطائف بالحجاز . وهذا
عبد الحميد المعروف
بالكاتب انفق شطراً من
العمر معلماً في كتابات
الشام قبل ان يلحق بمروان
ابن محمد والي ارمينية الذي

قدر له ان يكون آخر الخلفاء الامويين . وهذا حماد الراوية،
على ما ينقل البغدادي في « خزنة الادب » انما انصرف
الى العناية بجمع الشعر القديم، لانه فيما كان يصحب الصعاليك
ويسطو ويلص في اول امره، نقب على رجل بيته واخذ ماله
ومتاعه، فكان فيه جزء من اشعار الانصار فقرأه حماد
واستحلاه وحفظه وطلب الزيادة والتوسع في شعر العرب حتى
بلغ في العلم ما بلغ. وهذه ظبية، امرأة مولاة لآل الزبير،
تتحدث انها فيما كانت داخلة الى منزل عبدالله بن الزبير ومعه
دفتر مرت بعبدالله وهو بقاء المنزل، فقال لها : ما هذا معك ؟
ف قالت : شعر عمر بن ابي ربيعة فقال لها : ويحك ، تدخلين
على النساء بشعر ابن ابي ربيعة ، ان لشعره موقعاً من القلوب
ومدخلاً لطيفاً . لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجمي
به^٢ . وهذا ابو عمرو بن العلاء ، على ما نقل عنه الجاحظ^٣
كان اعلم الناس بالعرب والعربية والقراءة والشعر وايام الناس
وكانت كتبه التي يكتبها : من العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً
له الى قرب من السقف ثم تقرأه فاحرقها كلها . فلما رجع
بعد الى علمه الاول لم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه . وكانت
عامة اخباره عن اعراب قد ادر كوا جاهلية .

وعلى ذكر الاعراب يبدو ان فصحاءهم كانوا ربما وفدوا
من بواديهم على المدن ، فاحترفوا فيها تعليم اللغة العربية لابناء
الموالي والعرب ، وكان يرغب فيهم الناس لان اللغة في افواههم
باقية على سلامتها ونقاؤها . من هؤلاء الاعراب رجل اسمه ابو

نصف اقفال في عصر الجاهلية، وواجه مطالب علمية وحاجات
ثقافية ملحة لم يكن يواجهها من قبل او كان اذا واجهها لا يجد
الى كفايتها من سبيل .

ولقد كان طبيعياً ان يكون اول ما عرف من تلك
المطالب العلمية والحاجات الثقافية متصلاً باللغة العربية . ذلك
ان اختلاط العرب بالشعوب المغلوبة لهم واقبال ابنا هذه
الشعوب على اللغة العربية قد عرضها للفساد في النطق والاعراب،
وراء هذا ما وراءه من عواقب وخيمة تبلغ حد الاخلال
بالقرآن لفظاً ومعنى . ومن ثمة لم تكف تقوم مدينة البصرة
والكوفة في العراق حتى اصبحنا مائة نشاط في بحث امور
اللغة، وما يستتبع هذا البحث حتماً من النظر في الآثار
الادبية الجاهلية ، او ما يُزعم انه آثار ادبية جاهلية ، ابتغاء
معرفة الاحوال الضابطة للغة نطقاً واعراباً بحيث يستطيع
العربي والدخيل على اللغة العربية ان يجيدها تعليماً بعد ما عجز
عن ان يجيدها فطرة وسليقة .

وازدهر هذا الحقل الثقافي المتصل باللغة وآدابها ازدهاراً
مرموقاً في عصر الامويين ، وزادته ازدهاراً اسباب اخرى
تضاف الى سبب الحفاظ على القرآن، منها رغبة العرب في
مباهاة الشعوب المغلوبة لهم بجمال لغتهم وروعة آدابها ، وميل
القبائل العربية الى مفاخرة بعضها لبعض بقوة البيان ونصاعته،
وتشجيع الخلفاء لعلماء اللغة والأدب وحرص الموالي على ان
يبهروا العرب حتى في باب التضلع من لغتهم القومية وآدابها
اما بحافز شعوبي يجرى اولئك الموالي او بطلب تفقه في دينهم
الجديد الذي لغته العربية ، او بطلب ما تيسر من الوظائف
في دولة عربية كان بديهياً ان تتخذ من العربية لسانها الرسمي .

وهكذا وجدنا في العصر الاموي مدارس ومعلمين للغة
ورواة ومدونين للادب العربي سواء منه ما كان جاهلياً
او معاصراً لبني أمية . فهذا الحجاج بن يوسف الثقفي ، كان
قبل ان تصير اليه الولاية، معلماً يقريء الصبيان في مدينة

١ جزء ٤ صفحة ١٣١ طبع مصر .

٢ الاغانى . جزء ١ ص ٣٥ . طبع ساسي . مصر

٣ البيان والتبيين . جزء ١ ص ٣٢١

٤ ولد ابو عمرو بن العلاء سنة ٧٠ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان
وتوفي على ايمد تقديراً في آخر سنة من خلافة المنصور ١٥٨ هـ او اول سنة
من خلافة المهدي : ١٥٩ هـ . فقد كان عمره اذاً عند ما وقع الانقلاب
العباسي سنة ٣١٢ هـ نحواً من ٥٢ سنة ؛ وفي مثل هذه السن ينبغي له ان
يكون قد بدأ بالتأليف .

٥ تقرأ : تنسك ، زهداً .

الجاموس ثور بن يزيد كان استاذاً لابن المقفع في البصرة .

على ان هذه العناية باللغة العربية وآدابها ما كانت لتفني بجميع المطالب الثقافية والحاجات العلمية التي استلزمها التقدم المطرد في الحضارة والعمران في مسافة الزمن بين ظهور الاسلام وقيام العباسيين . فلقد كان منتظراً ان تتعقد الحياة بجهتها الحسية والمعنوية . كانت منتظراً بطبيعة التقدم الحضاري والعمراني ، وبما ادى اليه اختلاط العرب بالشعوب المغلوبة لهم واطلاعهم على معارف الامم القديمة وآثار مدينتها واستنارتهم بانوار جديدة . ونتيجة لهذا التعقد في الحياة من الجهتين الحسية والمعنوية ، نشأت الضرورة لمساعي عقلية وتيارات فكرية ونزعات روحية وذوقية لم يكن متبوع التاريخ العربي ليعثر بها من قبل . نشأت ضرورة ماسة لمسمى عقلي ينصرف الى الفقه الاسلامي ومصادره من قرآن وحديث وما توسع فيه من قياس واستحسان واجتهاد ورأي وعرف وما الى ذلك طلباً لتسريع يستجيب لما أصبح يفرضه تنظيم هذه الحياة التي تنمو وتتعدد في مختلف نواحيها . فكان الحسن البصري ^٢ . ومالك بن أنس ^٣ وابو حنيفة ^٤ والاوزاعي ^٥ وكل هؤلاء قد عاصر ابن المقفع او تأخر عنه سيراً .

كذلك نشأت ضرورة لجهود عقلية تعالج أمر هذه العلوم التي تصحب مواكب الحضارة والعمران ، كالطب - وكان طليعة العلوم الدخيلة التي اهتم لها العرب - والفلك والرياضيات . ونبع بهذه العلوم افاذا كالطبيب جورجيس بن مجتيشوع الذي داوى المنصور من فساد في معدته ، والفلكي ، محمد بن ابراهيم الغزاري ، وسوى هذين ، من عاش في عصر ابن المقفع .

وكذلك نشأت ضرور، لجهود عقلي يتصل بالفلسفة وما يمت اليها من موضوعات فلسفية مصطبغة بالدين كان لا ينفك

١ وبالبرصة سوق المر بديح كان يتهاجى الفرزدق وجريوراعى الابل في العصر الاموي ، ثم حيث اخذ يجتمع طلاب الفصاحة من افواه الاعراب في العصر العباسي . ولا شك ان ابن المقفع افاد بالعربية في هذه السوق سوق المر يد ، كما افاد من بعده ابو عثمان الجاحظ على ما اثبت ياقوت (معجم الادباء . جزء ١٦ ص ٧٥ مطبوعات دار المأمون بمصر)

٢ توفي سنة ٧٢٨ م (١٠٠ هـ) .

٣ ٩٣ هـ (أو ٨٩٧ هـ) - ١٧٩ هـ . ومالك بن أنس هو صاحب المواعظ أقدم كتب الفقه الاسلامي الباقية لنا فضلاً عن جلال قدره .

٤ توفي سنة ١٥٠ هـ .

٥ ٥٨٨ - ١٥٧ هـ .

يتجادل فيها شعوب من الذين اختلط بهم العرب ، ويجادلون فيها العرب ايضاً ، موضوعات مشوقة مثيرة لانها تبحث في العقائد الدينية وفي الله وفي الاخلاق البشرية الفاضلة وقيمة الانسان ومصيره . فكان ذلك سبباً من اسباب ظهور الفرق والخلاف حول قضية كقضية الايمان مثلاً، أيكفى فيه بالتصديق بالقلب واللسان كما قالت المرجئة ، ام ينبغي فيه العمل كما قالت الخوارج ؟ وقضية اخرى كتبعية الانسان في اعماله ، ان تكون اعماله مخلوقة له فهو مضطر فيها مسير كما قالت الجبرية ، ام هو خالق لها فهو حر فيها مخير كما قالت المعتزلة واحد رؤسائها واصل بن عطاء الغزال معاصر ابن المقفع ؟

ومثل هذه القضايا ، على ما هو متعارف مشهور ، قد استغرق علاجه قسطاً من النشاط الذهني في الحلقة التي كان يعقدها الحسن البصري ايام الامويين في البصرة ، ثم ازداد مقدار هذا النشاط الذهني الذي استغرقه علاج هذه القضايا في ايام العباسيين . واقرب الادلة على ذلك ما اختار ابن المقفع ان تفيض به آثاره المؤلفة والمترجمة من بحث لهذه القضايا نفسها . وبما يحسن هنا التنبيه عليه ان ابن المقفع هو اقدم كاتب جري على قلعه ذكر الفيلسوف باللغة العربية . وذلك في المقدمة التي وضعها لكليلة ودمنة ^١ .

والفيلسوف لا يستقيم امره طبعاً الا بالنظر والاستدلال العقلين . والنظر والاستدلال العقلان طالما باينا الدين في بعض ما ينتهيان اليه من الحقائق ، فإن لم يبيانه في الحقائق ذاتها فارقاه في الاساليب الموصلة الى تلك الحقائق . ذلك ان الدين لا يؤثر فيه اسلوب على اسلوب الاقرار والتصديق بالقلب واتباع النقل والتقليد ، بينما الاستدلال والنظر العقلان عمادها البحث وما يتسع له من شك ونفي واثبات بالحجج العقلية .

وهكذا ، لم تكدر رباح الفلسفة تهب على الازهان في مجتمع كالمجتمع الاموي والعباسي ترجع فيه الدولة والنظام الى الأوامر والنواهي الدينية ، حتى وقع الاصطدام بين اصحاب الاسلوب الديني والاسلوب الفلسفي .

وطبق اصحاب الاسلوب الديني يرمون خصومهم بكل شحنة . فراجت تهم معدة سلفاً ، تشبه التهمة بالشيوعية اليوم في دول رأس المال او التهمة برأس المال في دول الشيوعية . أعدت هذه التهمة لتسكون «جاهزة» للالصاق بكل مفكر

١ ص ٦٣ ، طبع المطبعة الكاثوليكية بيروت . سنة ١٩٥٠ .

ببدي قدرأ من التحرر او شيئاً من الدعوة الى التجديد. وكان أخص تلك التهم الزندقة ، وهي لفظة واسعة الدلالة وبالتالي مبهمه غامضة . والغريب انها لم تكن سلاحاً يشهر على من يظهر ون استغلالاً في رأي ديني محض بمقدار ما كانت سلاحاً يشهر على اصحاب الرأي المستقل في السياسة ، وذلك حرصاً من اولي السلطان على النيل من خصومهم السياسيين بذريعة الغيرة على الدين .

وعلى ذكر الرأي المستقل في السياسة ، نقول انه لم يكن طبيعياً ان تتضع امام زحف العرب البداقدولتان تتمتعان في عصرهما باهى مظاهر العظمة والقوة ، كالدولة الساسانية والبيزنطية ، ولم يكن طبيعياً ان يستمر ذلك النزاع على الخلافة في آخر العصر الرشدي وفي العصر الاموي ، وان تصطرع الاحزاب في ساحات الفكر اضطراعها بالسلاح في ساحات الموت ، وان يقع الانقلاب العباسي ، وان لا يخلو وقت من فتنه هنا وثورة هناك ، أجل ، لم يكن طبيعياً ان يحدث ذلك كله الا وقد مست الضرورة الى جهد عقلي حر يعانى المسائل السياسية النظرية كمسألة زوال الدول ونشوتها ، وحقوق الراعي وحقوق الرعية ، والتضاء والجند وغيرها من المسائل التي يثيرها اضطراب الاحوال السياسية وتثيرها الانقلابات ، ولا سيما انقلاب خطير كالعباسي عمل له الناس وتطلعوا من ورائه الى حكم يبرأ من سيئات عهد بائد وتتوافر فيه شروط حكم صالح^١

وهذا الحديث عن مختلف الجهود العقلية التي حثت عليها الضرورة بسبب اطراد التقدم ، الحضاري والعمرائي اثناء

١ من الامثلة على ذلك رسالة الامام الاوزاعي الى صالح بن علي بن عبدالله بن عباس ، يوم قام جماعات من البنانيين من اهل الذمة لسوء ما كانوا يلقون من عامهم على الخراج ، فجرد صالح هذا -- وهو من قادة العباسيين ايام ابي جعفر -- حملة عليهم ونكل بهم طالتم يده من غير تمييز ، واجلى كثيراً من البنانيين عن ديارهم . قال الاوزاعي في رسالة يجتج على صالح ، وفي احتجاجه مناقشة تدخل في باب السياسة النظرية وان اتصلت بالدين لانصال السياسة بالدين في ذلك العصر : « فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم ، وحكم الله تعالى ان لا تزر وازرة وزر اخرى ، وهو احق ما وقف عنده واقتمدى به . واحق الوصايا ان تحفظ وصية رسول الله (ص) فانه قال : من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقتة فانا حجيجه (فتوح البلدان للبلاذري ، ص ١٦٩ طبع مصر) .

المسافة بين ظهور الاسلام وقيام العباسيين ، هذا الحديث لا يتم الا ان تصور ما نشط من حركة للترجمة كانت مجلى باهراً من مجالي تلك الجهود العقلية . ولقد مكن من حركة الترجمة ذلك الجيل المزدوج اللغة : عربية وفارسية (فهلوية) ، او عربية ويونانية ، او عربية وسريانية ، او عربية وهندية (سنسكريتية) ذلك الجيل الذي نشأ من امتزاج العرب بغيرهم من الشعوب واختلاط المسلمين بسواهم من اصحاب العقائد والمذاهب ، ويذكر لنا الجاحظ مثلاً من هذا الجيل الثنائي اللسان اسمه موسى بن سيار الاسواري ، كان من اعاجيب الدنيا . كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويعسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد ، أدخلت واحدة منهما الضيم على صاحبتها ، الا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الاسواري^١ ومثل موسى بن سيار هذا - وان استبعدنا ان يكون قد بلغ مبلغه من اجادة اللغتين - سرياني نصراني ، اسمه تيوفيل بن موسى الرهاوي ، نقل عنه انه عرب شعراً قسماً من الياذة هو ميروس وابو يحيى بن البطريق الذي ترجم للمنصور كثيراً من طب جالينوس ومحمد بن ابراهيم الفزاري الذي ترجم كتاب السند هند في الفلك للمنصور ، ورهط عظيم غير هؤلاء من عاصروا ابن المقفع او تأخروا عنه وزاملوه في الترجمة .

ولا يكاد يفترق الى ذكر ان حركة الترجمة قد وجدت لها معواناً عظيماً في ان العرب ظهروا ناهضين على مسرح التاريخ ابان القرون الوسطى في اقطار اتسح لها ان تراث ثقافات غنية وان تتفاعل فيها تلك الثقافات وان تحتفظ منها بمبءات زاهرة . تلك الثقافات هي اليونانية والفارسية والهندية ، ووجهها اليونانية التي كان اخص من تعهدا السريان والتي تلاققت هي والثقافة الهندية لتؤثر في الثقافة الفارسية التي اشرفت بنور مرموق ابان الشطر الثاني من القرن السادس الميلادي ، ايام كسرى انوشروان . اما المبءات الثقافية فقد كان اشهرها الرها في جوار حمص واليهما ينسب تيوفيل بن توما الرهاوي الآنف ذكره ، وحران في العراق ، وجنديسابور في فارس

(الاهواز ، خوزستان) وهي التي اقامها كسرى انوشروان
ومنها جرجيس بن بختيشوع طبيب المنصور .

واختلفت دوافع الاشخاص الى الاستهام في حركة الترجمة
هذه ، فمن دافع الرغبة في جوائز الخلفاء الى دافع الشعبويين
ان يظهروا تفوق الامم من العرب ، الى الدافع العلمي الصرف
الذي يمكننا تلخيصه بحسب البحث عن حقائق جديدة ومتع
جديدة ونشرها في الناس .

وانقسمت حركة الترجمة فنوناً بحسب طبيعة الموضوعات
التي تعلق بها ، فترجمة علمية وترجمة ادبية واخرى ادبية
فلسفية . وكان ابن المقفع مترجماً ادبياً فلسفياً .

والى حركة الترجمة هذه ، بالاضافة الى ما كان يبلى من
أما لي ويدور من نقاش في حلقات اللغة والفقه والفلسفة ، يجب
ان نرد اسباب نشأة ذلك النثر الجديد الذي انبثق في العصر
العباسي الاول ، الا وهو النثر الذي عرف بالمرسل والذي
استقام معه ذوق جديد في البلاغة ، وطريقة جديدة في الكتابة
يلمسان في اسلوب ابن المقفع .

ولا ريب ثم في ان وصف الجانب الثقافي من عصر ابن
المقفع يقتضينا ان نذكر ما انقسم اليه جماعة الشعراء ونقاد الشعر
من انصار للمذهب القديم يؤثرون الشعر الجاهلي ايتاراً ويرون
فيه المنوال الذي ينبغي للشعراء ان ينسجوا عليه ، وانصار
للمذهب الجديد قد عزفت نفوسهم عزوفاً عن الشعر الجاهلي
وبيئته الصحراوية الى شعر مترف يلائم الحضارة وال عمران
الجديدين على ضفاف الدجلة والفرات . واكثر من يؤرخون
للادب العربي يجمعون على ان هذا الشعر الجديد الذي مثل
طرفاً منه بشار ، ثم مثله ابو نواس « زعيم الثورة التجديدية »
انما هو اظهر ما يلفتنا من حوادث الادب العربي في العصر
العباسي الاول . ولكننا عند التحقيق نرى ان هذا الشعر
الجديد الثائر لا يكاد يزيد على ان يجلو لنا الواناً من البذخ
والتبذل في ارسنوقراطية المجتمع العباسي ، وصوراً من « فلسفة »
في الحياة مستخفة بالحياة مستوحشة منها ، بينما هذا النثر المرسل
الذي انبثق في هذا العصر وكان ابن المقفع من رواده قد كان
اداة جلاء ما هو اعمق واجدى بما جلاه الشعر . ومن هنا كان
نشوؤه هو في رأينا أعظم حادث ادبي في ذلك العصر .

رئيف خوري

ظهر حديثاً عن :

دار المعارف

غ . ل .

الموجز في الادب العربي وتاريخه لجنة من الاساتذة	٣٠٠
كنديد ترجمة الاستاذ عادل زعيتو	٤٠٠
النقد من مجموعة فنون الادب العربي	١٢٠
الرثاء	١٢٠
الغزل ، اول	١٢٠
الغزل ، ثان	١٢٠
الفرزدق من مجموعة نوابغ الفكر العربي	١٢٥
ابن الرومي	١٢٥
اللغة عند الطفل من مجموعة علم النفس التكاملي	٣٠٠
الفرضية في السلوك الانساني	٥٠٠
التربية الفنية في فترة المراهقة لمعد الخادم	٢٥٠
حوار العباقرة ترجمة الاستاذ بديع شريف	٧٥٠
قصص الخراء	٤٠٠
ابن فرجينيا	٦٠٠
امريكا بيت ججا	٢٥٠
تفسير القرآن الكريم الجزء ٢٦٠ لمحمد محمد حمزه وشركاه	١٠٠
سحر لبنان	٣٠٠
تفسير الطبري ثالث تحقيق محمود محمد شاكر	١٠٠
موسى والخضر من مجموعة القصص الدينية	٣٠
بقرة بني اسرائيل	٣٠
اصحاب القرية	٣٠
أهل الكهف	٣٠
أصحاب الاخدود	٣٠
اصحاب الفيل	٣٠
عام الفيل	٣٠
زمزم	٣٠

نطلب من متعهد التوزيع

دار المعارف بيروت

لصاحبها أ . بدران

بناية العسيلي السور - ص . ب ٢٦٧٦

ومن جميع المكتبات الشهيرة في البلاد العربية